والله سبحانه وتعالى أعلم (١) .

[تمَّ القولُ فى الحمام ، والحمدُ لله وحدَه] .

باب

القول فى أجناس الذِّبَّان (٢)

بسم الله ، وبالله [والحمد لله] ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله ، وصلَّى الله على سيِّدنَا محمَّدٍ النبىِّ الأمىِّ وعلى آله وصحبِه وسلَّم ، وعلى أبرار عِتْرَتِه (٣) الطيِّبينَ الأخيار (٤) .

أُوصيك أيُّها القارئُ المتفهِّم، وأيُّها المستمعُ المنصِت المصيخ (٥) : ألاّ تحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثَّته ، ولا تستصغر قدرَه لقلَّة ثمنٍ .

---

(١) هذه الجملة ساقطة من ل .

(٢) كلمة « باب » وكذا « أجناس » ساقطتان من ل .

(٣) العترة ، بالكسر : نسل الرجل ، ورهطه ، وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر . ل ، ط : « عشيرته » .

(٤) يبدو أن الفقرة من أولها دخيلة على الكتاب ، فليست من أسلوب صاحبنا .

(٥) المصيخ : المستمع . وبدلها فى ط ، س : « المتصفح » . وكيف يكون المستمع متصفحاً ؟ ! .

(دلالة الدقيق من الخلق على الله)

ثمَّ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على الله من الحصاة ، ولا الفَلَكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلَّ عَلَى الله من بدَن الإنسان . وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقَهُ كعظيمهِ وجليله . ولم تفترقِ الأمورُ فى حقائقها ، وإنما افترقَ المفكِّرونَ فيها ، ومَن أهمَل النَّظرَ ، وأغفَلَ مواضع الفَرْق ، وفُصولَ الحدود .

فِمنْ قِبَلِ ترْكِ النَّظرِ ، ومن قِبَلِ قطْع النَّظر ، ومن قِبَل النظر من غير وجه النَّظَرِ ، ومن قِبَل الإخلال ببعض المقدّمات ، ومن قِبَل ابتداءِ النَّظر من جهَة النَّظرِ ، واستِمام النظرِ مع انتظام المقدَّمات ـــ اختلَفوا .

فهذه الخصالُ هِيَ جُمَّاع هذا الباب ، إلاَّ ما لم نذْكرْه من باب العجز والنقص ؛ فإن الذى امتنع من المعرفة من قِبَل النُّقصانِ الذى فى الخِلقة[1] بابٌ عَلَى حِدة .

وإنما ذكرنا بَابَ الخطأ والصَّواب ، والتَّقْصِيرِ والتكميل .فإياك أن تسىء الظَّنّ بشيءٍ من الحيوان لاضطراب الخلق ، ولتفاوُت التركيب ، ولأنّه مشنوءٌ فى العَين ، أو لأنّه قليلُ النّفع ِوالرَّدِّ ؛ فإنَّ الذى تظُنُّ[2] أنّه أقلُّها نفعا لعله أن يكون أكثرَها ردًّا . فإلاَّ يكن[3] ذلك من جهةِ عاجلِ أمرِ الدنيا ،

---

(١) ط ، س : « الذى بابه فى الخلقة » . وكلمة « بابه » مقحمة .

(٢) ط ، س : « يظن » ، وتقرأ بالبناء للمفعول .

(٣) ط : « إن لايكون » س : « ألا يكون» وتصحيحه وفق مافى ل .

٩٣ كان ذلك فى آجل أمر[1] الدين . [وثوابُ الدين] وعقابُهُ باقيان ، ومنافعُ الدنيا فانية زائلة ؛ فلذلك قدِّمت الآخرة على الأولى .

فإذا رأيتَ شيئاً من الحيوانِ بعيداً من المعاوَنة ، وجاهلاً بسبب[2] المكانَفةِ[3] ، أو كان مما يشتدُّ ضررُه ، وتشتدُّ الحِراسة منهُ ، كذوات الأنيابِ من الحيَّات والذئابِ[4] وذواتِ المخالبِ من الأسْدِ والنُّمور ، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدَّبْر ، فاعلم أنّ مواقع[5] منافعها من جهة الامتحان ، والبلوَى . ومن جهة ما أعد الله عزَّ وجلَّ للصابرين ، ولمن فهم عنه ، و [لمن][6] علم أنَّ الاختِيارَ والاختبَار [لا][7] يكونان والدنيا كلُّها شرٌّ صِرْفٌ أو خيرٌ محْض ؛ فإنّ ذلك لا يكون إلاّ بالمزاوجةِ بين المكروهِ والمحبوب ، والمُؤلم والملِذّ ، والمحقَّرِ والمعظَّم ،والمأمُون والمخوفِ . فإذا كان الحظُّ الأوفَرُ فى الاختبار والاختيار[8] ، وبهما يُتوسل إلى ولاية الله عزّ وجلّ ،وآبِدِ[9] كرامته ، وكان ذلك إنما[10] يكونَ فى الدار المزوجةِ من

(١) ط ، س : « ثواب » .

(٢) س : « بسبيل » ط : « لسبيل » وهذه تحريف الأولى . وأثبت ما فى ل .

(٣) المكانفة ، بالنون : المعاونة . كانفه : عاونه . ل : « المكاتفة » بالتاء . ولم أجدها .

(٤) ط : « الذبان » ، وهو تحريف عجيب ، صوابه فى ل ، س .

(٥) ليست فى ل ، س .

(٦) الزيادة من ل ، س .

(٧) الزيادة من س . والكلام بعده إلى كلمة « ذلك »ساقط من ل .

(٨) ط ، س : « والاعتبار » ، والوجه ما أثبت من ل .

(٩) الآبد : الدائم . وبدلها فى ط ، س : « وإلى » .

(١٠) ل : « لا » ، وهو تحريف يفسد المعنى .

الخير والشرِّ ،والمشتركة والمركّبة بالنّفْع[1] والضر ، المشوبةِ باليُسْرِ والعسْر — فليعلَمْ موضعَ النَّفْعِ في خَلْق العقرب ، ومكانَ الصُّنْع في خَلْق الحيَّة ، فلا يحقرنَّ الجِرْجِس[2] والفَرَاشَ والذرَّ والذِّبان[3] ولْتقِفْ حتَّى تتفكَّرَ فى الباب الذى رميتُ إليك بجمْلَتِه ، فإنّك ستكْثِرُ حَمْدَ اللهِ عزّ وجلّ ، على خلْق الهمَجِ والحشرَاتِ ، وذواتِ السُّمومِ والأنياب ، كما تحمَده عَلَى خلْقِ الأغذيةِ من الماءِ والنَّسيم .

فإنْ أردتَ الزِّرايةَ والتَّحقيرَ ، والعَداوةَ والتَّصغير ، فاصرفْ ذلك كلَّهُ إلى الجنِّ والإنس ، واحقِرْ منهم كلَّ مَن عمِل عملاً من جهةِ الاختيار[4] يستوجبُ به الاحتقار ، ويستحقُّ به غايةَ المقْت من وجهٍ ، والتصغيرَ من وجه .

فإن أنت أبغضت من جهةِ الطبيعة[5] ، واستَثْقَلتَ من جهةِ الفِطرة ضَربينِ من الحَيَوان : ضرباً يقتلك بسمه ، وضربا يقتلك بشدةِ أسْره[6] لم تُلَمْ . إلاّ أنّ عليكأنْ تَعلَمَ أنّخالقَهما لميخلقْهما لأذاك[7] ،وإنماخلقهما لتصبرَ عَلَى أذاهما ، ولأنْ تنالَ بالصَّبر الدرجَةَ التى يستحيل أنْ تنالها [إلاّ] بالصَّبر[8] .

---

(١) ل : « ومكان النفع فى صنع الحية » .

(٢) الجرجس ، بكسر الجيمين : البعوض الصغار . ويقال أيضاً : القرقس ، بوزنه .

(٣) الذر : صغار النمل . و « الذبان » بالكسر : جمع « الذباب » . وبهذه جاءت فى ط ، س .

(٤) ط ، س : « الاختبار » وهو تحريف ما فى ل .

(٥) ل : « فإن أنت بنية الطبيعة » وهو كلام مشوه .

(٦) الأسر : شدة الخلق والخلق . ط : « أشره » تحريف .

(٧) ط : « لذاك » . وما أثبت من س ، ل أوفق .

(٨) ط ، س : « التى تستحق أن تنالها بالصبر » ، ومؤدى العبارتين واحد .

والصبرُ لا يكونَ إلاّ عَلَى حَالٍّ[١] مكروه . فسواءٌ عليك [أ] كان المكروه سبُعا وثَّابا ، أوكانَ مَرَضًا قاتلا . وعَلَى أنّك لاتدرى ، لعلَّ النزْعَ ، والعَلَزَ والحشْرَجة[٢] ، أن يكون أشدَّ من لذْغ[٣] حيَّة ، وضَغْمةِ سبعٍ[٤] . فإلاّ تكُنْ له حُرقةُ كحرق النار[٥] وألمٌ كألم الدّهَق[٦] ، فلعلَّ هناك من الكرْب ما يكون موقعهُ من النَّفس فوقَ ذلك .

وقد علمنا أنّ النَّاس يُسَمُّون[٧] الانتظار لوقع السيف عَلَى [صليف[٨]] العُنق جهَدْ البلاءِ ؛ وليس ذلك الجهْدُ من شكل لذْع النار ، ولا من شكل
٩٤ ألم الضربِ بالعصا . فافهم فهَّمَكَ الله مواقع النفع كما يعرفها أهلُ الحكمة ، وأصحاب الأَحْسَاس الصحيحة .

ولا تَذْهب فى الأمورِ مذهَبَ العامّةِ ، وقد جَعَلَكَ اللهُ تَعالى من الخاصة ، فإنّكَ مسئولٌ عن هذه الفضيلة ؛ لأنّها لم تجعَل لعِبا[٩] ، ولم تترُكْ

---

(١) حال ، أى حاضر . ل : « عاجل » .

(٢) النزع : قلع الحياة . والعلز بالتحريك : هلع يصيب المحتضر . والحشرجة : الغرغرة عند الموت .

(٣) ط ، س : « لذع » وصوابه فى ل .

(٤) هاتان ساقطتان من ل . والضغمة : العضة . وسمى الأسد ضيغما لذلك .

(٥) كذا فى ل . وفى ط : « فلا يكون حرقة كحرق اللسع » وفى س : « فلا يكون لك حرقة كحرق اللسع » ، محرفتان .

(٦) الدهق ، بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، فارسيته : أشكنجه .

(٧) ل : « لايسمون » ، وكلمة « لا » تفسد المعنى .

(٨) الصليف ، كأمير : عرض العنق .

(٩) ل : « لغوا » .

هَمَلا . واصرِفْ بُغْضَك إلى مُريدِ ظلمكَ[(١)] ، لا يراقِب فِيكَ إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا مودةً ، ولا كتابا ولا سنَّة . وكلما زادك الله عزَّ وجلَّ نعمةً ازدادَ[(٢)] عليك حَنَقا ، ولكَ بُغْضاً . وفِرَّ كلَّ الفِرارِ واهرُبْ كلَّ الهرَب ، واحترسْ كلَّ الاحتراس ، ممن لا يراقبَ اللهَ عزَّ وجلَّ ؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين ، إمَّا أن يكونَ لا يعرفُ رَبَّهُ مع ظهور آياتهِ ودلالاته ، وسبوغِ آلائهِ ، وتتابُع نَعْمائِه ، ومع برهانات رُسله ، وبيانِ كتبِهِ ؛ وإمَّا أنْ يكون بهِ عارفاً وبدينهِ[(٣)] موقناً ، وعليهِ مجترئاً ، وبحُرماتِه مستخفًّا . فإن كان بحقِّهِ جاهلا فهو بحقِّك أجهل ، وله أنْكَر . وإن كان بهعارفاًوعليه مجترئاً فهو عليك أجرأ ، ولحقوقك أضْيَع[(٤)] ولأياديك أكفر .

فأمَّا خلْق البَعُوضةِ والنَّملة والفَرَاشةِ والذَّرَّة والذِّبّان[(٥)] والجِعْلان ، واليعاسيب والجراد — فإياك أن تتهاونَ بشأن هذا الجُنْد ، وتستخف[(٦)] بالآلة التى فى هذا الذَّرْء[(٧)] ؛ فَرُبَّتَ أمة قد أجلاها عن بلادها[(٨)] النملُ ، ونقلَها

(١) س « لمن يريد ظلما » .

(٢) ط فقط : « ازدادوا » .

(٣) س : « وبذنبه » وهو تحريف .

(٤) ط ، س : « ولخلقك » . و « أضيع » تفضيل من أضاع . وفى التفضيل من أفعل مذاهب ثلاثة : المنع مطلقا ، والجواز مطلقا ، والمنع إن كانت الهمزة لغير النقل .

(٥) الذبان : جمع ذباب . ط ، س : « والذباب » .

(٦) ط : « تسخفف » تحريف صوابه فى ل ، س .

(٧) الذرء : الخلق . وفى الأصل : « الذر » .

(٨) ل : « مساكنها » .

عن مساقِطِ رؤوسِها الذَّرُّ ، وأُهلِكت بالفأر[1] ، وجُرِدت بالجَرَادِ، وعُذِّبت بالبعوض ، وأفسَدَ عيشَها الذِّبَّان ؛ فهى جُندٌ إن أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يُهلِكَ بها قوماً بَعْدَ طُغْيانِهم وتجبُّرِهم وعُتُوِّهم ؛ ليعرِفوا أو ليُعرَفَ بهم أَنَّ كثيرَ أمرِهم ، لا يقوم بالقليلِ من أمر الله عَزّ وجل . وفيها بَعْدُ مُعتبرٌ لمن اعتبر ، وموعِظةٌ لمن فكَّر ، وصلاحٌ لمن استبصر[2] ، وبلوَى ومِحْنة ، وعذابٌ ونِقْمة ، وحُجَّةٌ صادقة ، وآيةٌ واضحة[3] ، وسَبَبٌ إلى الصَّبْرِ والفِكْرَةِ. وَهما جِمَاعُ الخيرِ فى باب المعْرفة وَالاستبانة[4] ، وَفى بابِ الأجْرِ وعِظَمِ المثوبة[5] .

وسَنَذْكُر جملةً من حَال الذِّبَّان ، ثم نقولُ فى جملةِ ما يَحضُرُنا منْ شَأْنِ الغِرْبانِ والجعلانِ .

(أمثال فى الفراش والذباب)

ويقال[6] فى موضع الذمِّ والهجاء : « ما هُمْ إلاّ فَراشُ نارٍ وَذِبَّانُ طَمَعٍ ». وَيقال : « أطْيَشُ مِنْ فَراشَة ، وَأزْهى مِنْ ذِبّانٍ » .

---

(١) إشارة إلى حادثة سيل العرم . زعموا أن السبب فيه فأرة ، قال الجاحظ : « لايشك الناس فى أن أرض سبأ وجنتها إنما خربت حين دخلها سيل العرم ، وأن الذى فجر المياه فأرة » . ثمار القلوب ٣٢٨ . ط ، س : « بالقراد » وليس بشىء .

(٢) ل : « معتبر وموعظة وصلاح » .

(٣) سقط الكلام من ل ، من مبدأ : « وحجة » .

(٤) ط : « والإبانة » .

(٥) « وعظم المثوبة » ساقطة من ل .

(٦) ل : « قالوا : يقال » .